مجلة الشهاب • المجلد: 12، العدد: 03 (2026م) • ص ص 143 – 168
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/391

قيم المقاومة في الدّرس التفسيري الجزائريّ أثناء الاحتلال الفرنسي

Values of Resistance in the Algerian Tafsīr Lesson during the French Occupation

يونس بوحمادو*
مخبر الشريعة
جامعة الجزائر1 (الجزائر)
y.bouhemadou@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2026-09-30	تاريخ القبول: 2026-11-01	تاريخ النشر: 2026-11-15

****

ملخص:

لم تنقطع أسانيد الدرس التفسيري في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، وقد تنوعت معالم هذه الاستمرارية بتنوع المدارس المعرفية الممارسة له؛ في تلك الفترة الحساسة من العمر الحضاري للقطر الجزائري، إلا أنها شكلت بمجموعها مظهرا من مظاهر المقاومة الثقافية، والممانعة العلمية للاحتلال، فلم يكن الدرس التفسيري آنذاك مجرد عرف أو تقليد علمي، بل كان رباطا معرفيا؛ سعى من خلاله علماء الجزائر إلى حفظ الهوية الإسلامية للجزائريين، وصيانة الشخصية الوطنية من الاستلاب والاستيعاب، مع تفعيل هداياته في مساعي الاستقلال، وفي هذه الورقة البحثية المركزة؛ يسعى الباحث لاستجلاء أهم الجوانب التي قاوم من خلالها علماء الجزائر سياسات الاحتلال الفرنسي في درسهم التفسيري.

الكلمات المفتاحية: القيم؛ المقاومة؛ الدرس التفسيري؛ الجزائر؛ الاحتلال الفرنسي.

Abstract:

The chains of transmission (asānīd) of the Tafsīr lesson in Algeria remained unbroken throughout the French occupation. The manifestations of this continuity varied with the diversity of the epistemic schools that engaged in it during that critical period in Algeria's civilizational history, yet together they constituted a form of cultural resistance and scholarly intransigence against the occupation. The Tafsīr lesson at the time was not merely a custom or scholarly tradition; rather, it was an epistemic bond through which Algerian scholars strove to preserve the Islamic identity of Algerians, safeguard the national character from alienation and assimilation and activate its guidance in the pursuit of independence. In this focused research paper, the researcher seeks to shed light on the key aspects through which Algerian scholars resisted French occupation policies in their Tafsīr lesson.

Keywords: Values; Resistance; Tafsīr lesson; Algeria; French occupation.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة

أُمتحنت الأمة الجزائرية في جميع جوانب وجودها المادي والمعنوي أثناء الاحتلال الفرنسي، وقد استمر هذا البلاء لأكثر من قرن وثلثه من الزمن، وهناك سعت الأمة الجزائرية بجميع مكوناتها إلى مقاومة الاحتلال في كل الشُّعب والمجالات التي ولج منها، وهو مسعى ضروري في مثل الاحتلال الفرنسي؛ الذي اتصف بأوصاف الغزو الشمولي؛ القائم على قصد الاستيعاب والإلحاق المادي للأرض، والاستلاب الثقافي والفكري للضمير الجزائري، ولا يخفى ما في هذه الثنائية العدوانية من طمس شامل للشخصية الوطنية الجزائرية؛ بجميع فروعها ومكوناتها الحضارية الأساسية.

واجهت الأمة الجزائرية الاحتلال الفرنسي بمقاومةٍ مماثلة له في الشمولية، حيث شغلت جانبي المكان والزمان، فأما باعتبار الزمان؛ فقد جاهده الجزائريون من أول أيام الاحتلال إلى قُبيل الاستقلال، أما باعتبار المكان؛ فقد شملت المواجهات أركان البلاد أربعتَها، وامتدت على الرّملين؛ من رمال سيدي فرج إلى رمال أقاصي الصحراء، وقد كان للدرس الإسلامي أدوار فكرية ونفسية فعّالة وحاسمة في الشحن الفكري والنفسي للجزائريين، كما أسهم -الدرس الإسلامي- بجميع فروعه وعلومه في الشخصية الإسلامية الجزائرية؛ بناءً وترميما، مع استحضار آثاره المباشرة في معاكسة سياسات الاحتلال، واستنهاض الهمم والضمائر لمجاهدته ومناهضته في ميادين المواجهة المسلحة.

في هذه الورقة البحثية المركزة؛ سينصرف الجهد إلى استجلاء فرع من فروع الدرس الإسلامي المقاوم؛ وهو الدرس التفسيري، وذلك للمكانة والأولية الحاصلة لتفسير القرآن الكريم بين فروع العلوم الشرعية، وتعلّقه بأول وأهم مصدر من مصادر الدين الإسلامي، ما يفرض علينا إشكالية معرفية جادة، تتجلى جوانبها في الطرح الآتي؛ هل شارك الدرس التفسيري الجزائري في المقاومة العلمية للاحتلال الفرنسي؟ وإذا ثبتت هذه المشاركة وتأكدت؛ ما هي جوانب الممانعة الثقافية فيه؟ وكيف تجلت وتبلورت صوره ومظاهره في الدرس التفسيري آنذاك؟

من خلال الإجابة عن إشكالية هذه الورقة البحثية؛ يمكننا تحقيق أهداف معرفية مهمة في الموضوع، يمكننا إجمالها فيما يأتي:

- الحكم على السند العلمي للدرس التفسيري في الجزائر؛ من ناحية الوجود والعدم، وباعتبار الاتصال والانقطاع المعرفي.
- إبراز موقف الاحتلال الفرنسي من الدرس الإسلامي عموما، ومن الدرس التفسيري على وجه العناية والتخصيص.
- الاطلاع على مدى مسايرة الدرس التفسيري الجزائري آنذاك لواقع المفسِّر، واستجابته لتطلعات المتلقِّين، ومدى تضمينه وتطعيمه بقيم المقاومة والمعارضة للمحتلّ، وهو ما يحكم عليه من جانب استجابته العلاجية لواقع الأمة، وإسهامه في تدعيم اتجاه التحرر والاستقلال.

يمكننا الإجابة بموضوعية عن الإشكالية المعرفية آنفة الذكر والإيراد، وذلك إذا استعنّا في البحث بمنهج علمي ثنائي التركيب، نجمع فيه بين؛ الاستقراء والتحليل، أما الأول فتتأكد الحاجة إليه في الرجوع إلى فترة الاحتلال الفرنسي، واستقراء أهم جهود أعلام الجزائر في الدرس التفسيري، والنظر في إنتاجاتهم التفسيرية، أما المنهج التحليلي؛ فحضوره أساسي في استجلاء قيم المقاومة من جهود المفسرين الجزائريين، وتحليل اتجاهاتهم ومضامينهم المعرفية المؤكدة لهذه القيم، مع ما يتخلل المنهجين الأساسيين؛ من لوازم المنهج الوصفي.

يتجلى الإطار العام لخطة البحث في ثلاثة مباحث رئيسة؛ يدرس أولها موقف الاحتلال الفرنسي من الدرس التفسيري للقرآن الكريم في الجزائر، أما المبحث الثاني؛ فيتناول قيم المقاومة الوجودية في حضور الدرس التفسيري واستمراريته، ليتكفل المبحث الثالث بإيراد أهم جوانب كفاح أعلام الجزائر في درسهم التفسيري، وجهودهم في توظيف درسه الشفهي والمدون في خطة المقاومة الشاملة للاحتلال، زيادة على باقي العناوين الفرعية الخادمة لإشكالية البحث.

2. موقف الاحتلال الفرنسي من تفسير القرآن الكريم

اتجهت سياسات الاحتلال الفرنسي في الجزائر إلى معاداة كل معالم الدين الإسلامي، ومناهضة إمداداته الفكرية والنفسية للشخصية الجزائرية، وهو ما حمله على السعي إلى محاولة قطعها وتجفيفها، ثم استبدالها بخصائصه المحققة لقيم الخضوع والاستسلام، والمحققة لمشروع الاندماج والانحلال في الأنموذج الفرنسي، وقد تباينت مساعي الاحتلال الفرنسي بين المنع والقطع من جهة، وبين المراقبة والتضييق من جهات أخرى.

1.2. منع الدرس التفسيري في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي:

إن استحضار سياقات الاحتلال الفرنسي العنيف للجزائر، واستذكار الروح الصليبية الباعثة عليه؛ تجعلنا أمام تفسيرات منطقية للممارسات الوحشية للاحتلال، والتي أتت بالضرر الشديد على جميع جوانب الوجود المادية والمعنوية للأمة الجزائرية، لتشتد عنصرية القوانين والإجراءات العسكرية والإدارية عند كل ما يتعلق بعلوم الدين الإسلامي، ومؤسساته الحاضنة للمؤمنين، والراعية لخطابه ودرسه، "وكل هذا يعطي للغزو الفرنسي طابعا صليبيا واضحا"[1]، وهو ما يغنينا عن إثقال هذه الورقة المركزة بالغوص والخوض في الأوضاع العامة للجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، والانصراف مباشرة إلى المقصود.

(1) سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج: 03، ص: 16، أما المؤرخ الشيخ المهدي البوعبدلي؛ فقد اعتبر الاحتلال الفرنسي احتلالا شبه صليبي، وقد قال في ذلك: "...الجزائر التي ابتليت باحتلال شبه صليبي طيلة مائة وثلاثين سنة، عقب احتلالا صليبيا تبنته إسبانيا؛ ودام ثلاثة قرون"، الحياة الثقافية بالجزائر، ص: 61، وإذا أردنا الحكم الأوروربي على الغزو الفرنسي للجزائر؛ ومن عمق أرشيف الفاتيكان: يُنظر: لورا فيشيا فاقليري، أرشيف الفاتيكان السري حول غزو الجزائر من قبل القوات الفرنسية لشارل العاشر أو الحرب الصليبية المجهولة.

اتجه الاحتلال الفرنسي إلى محاربة الدرس التفسيري، ومنع علماء الجزائر من تفسير القرآن الكريم، وقد شمل هذا المنع مؤسسات التعليم الأصلي للعلوم الشرعية في الجزائر؛ كالمساجد والزوايا والمدارس العتيقة، كما عمّ الحظر برامج التدريس ومقرراته في المؤسسات الرسمية التي أسسها الاحتلال لتخريج الموظفين الدينيين.

1.1.2. محاربة الدرس التفسيري الجزائري في المؤسسات العتيقة أثناء الاحتلال الفرنسي:

أعمل الاحتلال الفرنسي معامل الهدم في مؤسسات الدين الإسلامي؛ كالمساجد والزوايا، والمدراس العتيقة[1]، وما سلم من هدم المباني؛ نالته آلة الهدم والتفريغ المعنوي، حيث عمد الاحتلال إلى شلّ وظائفها، ومصادرة مواردها وأوقافها[2]، مع التضييق على مدرسيها[3]؛ إما بالقتل، أو السجن والنفي، أو التوقيف، أو الغرامات والمتابعات القضائية، أما في خصوص منع الدرس التفسيري؛ فقد عمد الاحتلال إلى "منع الزوايا من نشر التعليم العام، وفرض برنامج ضيق عليها؛ لا يتعدى تحفيظ القرآن الكريم دون تفسيره، أو تعليم قواعد اللغة وأصول الدين دون فهم"[4].

لم يختص حكم المنع بالزوايا فقط؛ بل عمّ وشمل حتى المساجد والكتاتيب، فقد "أجبروا المعلمين على تحفيظ القرآن للأبناء دون تفسيره لهم"[5]، وهذا الاتجاه الدقيق من الاحتلال؛ فيه دلالات كثيرة، يمكننا الإشارة إلى أهمها:

- توجس الاحتلال الفرنسي من كل حركة تعليمية موقظة، وتحسسه من كل درس إسلامي يمكنه بعث الضمائر للتحرر، أو أزّ الفكر للتدبر والاعتبار؛ واعتباره تفسير القرآن أهمها وأقدرها على تحقيق ذلك.
- إدراك الاحتلال -من خلال التقارير الاستشراقية الدارسة للواقع الجزائري- بأن "القرآن في الجزائر هو كل شيء"[6]، ولهذا اتجه إلى ضرب الضمير الإيماني الجمعي للأمة الجزائرية في أعز شيء عندها، والسماح بعلاقة الحفظ المجرد مع القرآن الكريم؛ دون أي تعلّق تفسيري محقِّق لقيم الفهم المثمر.
- الاتجاه إلى حصر العلاقة بين الجزائريين ودينهم الإسلامي؛ في التناول المجرد لعلومه، والتعامل مع نصوص الوحيين تعاملا مفرغا من كل قيم الجدوى، وهي خطوة يمكن من خلالها الوصول إلى نتيجة استلزامية؛ تتمثل في النفور والترك الكلّي، أو الغرق في ممارسات طقوسية غير فاعلة.

---

(1) يُنظر: سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 05، ص: 10- 110.

(2) يُنظر: سعيدوني ناصر الدين، الوقف في الجزائر أثناء العهد العثماني من القرن 17 وحتى القرن 19، ص: 57.

(3) يُنظر: سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 03، ص: 57.

(4) المصدر نفسه، ج: 03، ص: 173.

(5) المصدر نفسه، ج: 03، ص: 20.

(6) المصدر نفسه، ج: 03، ص: 21.

- اندراج هذا الاتجاه في المشروع الاستيطاني العام للاحتلال، ذلك "أن ما خططه الفرنسيون منذ الاحتلال كان يرمي إلى قتل هذه الدراسات العربية والإسلامية؛ وما ينجر عنها من تأليف وإنتاج وبحث"[1]، خاصة وأن مؤديات التأليف والإنتاج والبحث؛ تندرج في سياق الممانعة الفكرية للاتجاهات الثقافية للاحتلال، وهو ما يُفشل أو يعرقل مساعي الاندماج الشامل في خطط الاحتلال.

2.1.2. محاربة الدرس التفسيري الجزائري في المؤسسات الرسمية أثناء الاحتلال الفرنسي:

لم يقتصر منع ومحاربة الاحتلال الفرنسي لتفسير القرآن الكريم على المساجد والزوايا، ومؤسسات التعليم الأصلي؛ بل وصلت امتدادات المنع والحضر إلى المدارس الشرعية الثلاث[2]، ذلك أن أصل تأسيس الإدارة الفرنسية لهذه المدارس "كان يهدف إلى تخريج القضاة والأئمة الذين تحتاجهم الإدارة"[3]، وهو ما يقضي بأن تكون مقررات وبرامج هذه المدارس قائمة على بناء علمي محكم في العلوم الشرعية؛ حتى يستطيع الأئمة والقضاة الاضطلاع بمهامهم، والاقتدار على مسؤولياتهم ومناصبهم، ولتحوز هذه المؤسسات الرسمية على الاعتبار العلمي، ويمكنها منافسة المؤسسات الإسلامية العتيقة.

لم تستطع هذه المدارس الرسمية تحقيق تلك المقاصد، ولم يمكنها بلوغ تلك المآرب، ففشلت في منافسة مؤسسات التكوين الإسلامي في القطر الجزائري، وفي غيره من حواضر العالم الإسلامي، وقد انتُقدت حتى من الدارسين والنقاد الفرنسيين أنفسهم[4]، وذلك عائد ابتداء وانتهاء إلى الاختلالات الخطيرة في المقررات الدراسية، والتشوهات البنائية في تكوين الملكة العلمية للطلاب، فرغم تنوع العلوم المقررة على الملتحقين بها؛ إلا أن "التفسير والحديث وعلومهما لم تكن من بين مواد الدراسة، ولا من موضوعات الدروس العامة، ويتبع ذلك إبعاد القراءات وعلم التجويد والترتيل، وشروح الحديث"[5].

إن إقصاء القرآن الكريم وعلومه من مقررات المدارس الرسمية الشرعية الثلاث؛ دليل آخر على المقاصد العكسية للاحتلال الفرنسي من تأسيس هذه المؤسسات المشبوهة، فإذا كان القصد المعلن من إيجادها؛ هو إظهار الاحترام للدين الإسلامي أمام العالم، وتأييد مزاعم العناية بهوية الأمة الجزائرية المسلمة؛ فإن الأهداف الحقيقية من تأسيسها؛ هي تخريج أئمة وقضاة مجردين من هدايات الوحيين، ومحرومين من الأصلين، وخلق ازدواجية في الدرس الإسلامي؛ يمكن من خلالها هز القناعات، وبعث الشكوك والشبهات، وإشغال العامة والخاصة بمآخذ النفي والإثبات بين المتخاصمين.

(1) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 07.

(2) يُنظر: المصدر نفسه، ج: 03، ص: 367- 402.

(3) المصدر نفسه، ج: 03، ص: 367.

(4) يُنظر: المصدر نفسه، ج: 03، ص: 401.

(5) المصدر نفسه، ج: 07، ص: 08.

2.2. التضييق على الدرس التفسيري في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي:

لم يستطع الاحتلال الفرنسي قطع دروس تفسير القرآن الكريم في حواضر القطر الجزائري، فرغم الأضرار والنكبات التي أُلحقت به في مؤسساته ومدرسيه؛ إلا أن علماء الجزائر -بتنوع مدارسهم واتجاهاتهم- استطاعوا المحافظة على استمرارية واتصال السند العلمي للدرس التفسيري الجزائري، وصانوه من آفات الانقطاع والاندثار، وقد تعاملت الإدارة الفرنسية بحذر شديد مع الموجود منه، وواجهته بشتى وسائل التضييق، وذهبت به في شُعب المراقبة والتدقيق، ومما يمكن إجماله في هذا الباب؛ ما يأتي:

1.2.2. اشتراط رخصة إدارية رسمية لتفسير القرآن الكريم:

فرضت إدارة الاحتلال الفرنسي على العلماء والمدرسين حيازة رخصة رسمية قبل التصدر لتدريس بعض العلوم الشرعية، وعلوم التفسير على وجه التخصيص، قال الدكتور أبو القاسم سعد الله: "... والحكومة الفرنسية قد سمحت لهم بذلك لتعليم العامة قواعد العبادات وصفات الله، أما تفسير الآيات من القرآن الكريم؛ فهو يحتاج إلى رخصة رسمية، على المدرس أن يختار الآيات التي تناسب المقام، وأن يتقيد بالمرخص فيه من الرأي والاستنتاج"[1]، وتقييد الاحتلال لممارسة الدرس التفسيري بشرط الحصول على رخصة إدارية؛ يخفي أغراضا جمة، منها:

- محاولة تخويف العلماء والمدرسين، واعتبار من لا يمتلك رخصة للتدريس؛ خارجا عن النظام والقانون.
- إشغال المدرسين بتعقيدات ومتطلبات الحصول على هذه الرخص، وممارسة أقصى درجات المماطلة والإرهاب الإداري في حق طالبيها، وهو ما يدفعهم إلى الاستغناء عن طلبها، أو الانسحاب والهجرة إلى حيث يمكنهم التدريس بحرية.
- تعنت الإدارة الفرنسية وتشددها في منح هذه الرخص، والحرص على منعها عمن يُتوسم فيه خطاب الوعي والإصلاح، وتُخشى من جهته الدروس الحيّة، وجعلها حكرا على الجامدين، أو المدرسين الرسميين؛ من الخاضعين لإرادة الإدارة.
- استغلال الرخص الإدارية في تهديد المدرسين، والمعاقبة بسحبها عند أي خطر يُستشعر من جهة درسهم التفسيري، خاصة إذا وُجد بأن المفسر قد تجاوز "القيود التي كانت الإدارة تضعها على تناول الموضوعات المستمدة من القرآن، وتفسيرها بما يتناسب مع روح العصر وحاجة الناس"[2]، ذلك أن مناسبة الدرس التفسيري لروح العاصر والواقع، وموافقته لحاجة الناس ومتلقّيه؛ يعتبر خطرا على وجود الاحتلال، وعقبة حقيقية أمام مصالحه ومشاريعه.

(1) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 11.

(2) المصدر نفسه، ج: 07، ص: 10.

2.2.2. زرع الجواسيس والمخبرين في مجالس التفسير:

لم يكتف الاحتلال الفرنسي بالتضييق الإداري على الدرس التفسيري ومدرّسيه في الجزائر، ولم يقنع بالإجراءات الإدارية ذات الطابع النظامي في شكلها ومبدئها، بل اتجه إلى أساليب الخسة والدناءة في مراقبة المفسرين، ووصلت به المواصل إلى حد بثّ العيون والآذان في المجالس، وزرع المخبرين في المجامع العلمية المشهودة، "ونفهم من هذا أن السلطات الفرنسية كانت تضع المراقبين (الجواسيس) في تلاميذ وجمهور المستمعين للشيوخ المدرسين"[1]، وهذا ما يدل دلالة قاطعة على مستوى تخوف وتوجس الاحتلال من أي درس إسلامي قد يحيي النفوس، ويقيمها من مقاعد الخضوع والخنوع؛ إلى مقامات التحرر والانعتاق، وإدراك الاحتلال من هذا الجانب كان صائبا، إلا أنه أخطأ حين ظن بأن آلته الغازية كان يمكنها فصل الأمة عن دينها وكتاب ربها.

3.2.2. الاستعانة بآلة الاستشراق في مر اقبة المحتوى التفسيري:

من أخطر الوسائل التي وظفها الاحتلال الفرنسي في مساعيه للتضييق على الدرس الإسلامي عموما؛ والدرس التفسيري على وجه التخصيص؛ الاستعانة بالاستشراق والمستشرقين، وقد كان الاستشراق -إلى جانب الترجمة والبحث- أهم دعامة من دعامات الاحتلال[2]، ويكمن خطره في جوانب متعددة، نذكر منها:

- **دقة الاختصاص المعرفي والاطلاع العلمي للمستشرقين**؛ وهو ما يجعلهم أكثر الوسائل المعنوية التي مهدت للاحتلال الثقافي، وروادها هم الآلة الفاحصة لدين الأمة، والكاشفة عن أصوله وثوابته، "ومن البديهي أن يهتم المستشرقون الفرنسيون بالشعب المستعمَر دينا ولغة، وعادات وآثارا وتاريخا"[3]، مع دقة توظيف الاحتلال لمعالم التنوع والاختلاف، واستغلالها في مشاريع التفرقة والصراع.
- **الاستشراق والمستشرقون هم العين الدارسة والفاحصة للاحتلال**؛ اتجه أكثر المستشرقين إلى خدمة الاحتلال، وتثبيت سياساته الاستيطانية، ودعم خططه الإدماجية، والنفخ في روحه الصليبية؛ الحاقدة على الإسلام وكتابه، "فالمستشرقون كانوا (جنودا في الميدان) ولكن بلباس مدني، بل إن بعضهم بدأ حياته في الترجمة في المجالات العسكرية"[4].
- **تكليف المستشرقين بالتفتيش العلمي**؛ وذلك بمتابعة المدرسين، وتفتيش مضامينهم الدرسية، وتحديد اتجاهاتهم وضبطها، وذلك ما يسهل على الإدارة تصنيف المدرسين، وتحديد مواطن الخطر وتحييدها، ولا يخفى على مطلع مدى التحصيل العلمي الإسلامي، والاطلاع المعرفي

(1) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 03، ص: 116.

(2) يُنظر: سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج: 01، ص: 531.

(3) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 06، ص: 41.

(4) المصدر نفسه.

التخصصي لدى المستشرقين، وهو ما يعينهم على استشعار أدنى تهديد فكري في تقريرات المفسر في درسه، وقد وظّفت إدارة الاحتلال المستشرقين في وظيفة التفتيش سنة "1905- 1906؛ وهي أول سنة أصبح فيها المدرسون المسلمون تحت رقابة المستشرقين الفرنسيين"[1]، وإذا كان هذا تاريخ اعتماد التفتيش الاستشراقي؛ فإن التفتيش الإداري للدرس الإسلامي كان متقدما عن هذا التاريخ بوقت طويل، فقد أسس في سنة 1863م[2].

4.2.2. توظيف نزعة أهل الجمود من المعارضين الداخليين للدرس التفسيري:

من التحديات التي واجهها الدرس التفسيري الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي؛ معارضة بعض الجزائريين لتفسير القرآن الكريم، واعتراضهم على درسه في بعض الحوادث والأحداث التي سجلها التاريخ، ودونها الشهود والنَّقلة، وممن أشار إليها الشيخ مبارك بن محمد الميلي (ت: 1945م)، فقد أورد في هذا السياق الخطير "أخبارا غريبة"[3]، يتجه فيها أصحابها في مجمل ما اتجهوا إليه؛ إلى اعتبار "كلام الله أجل من أن يفسر، وإن الواجب الاقتصار على المألوف من المؤلفات، وإن الرجوع إلى الكتاب والسنة دعوى للاجتهاد، وغض من مقام الأئمة"[4]، وفي هذه القضية يمكن تسجيل مجموعة من الملاحظات الموجِّهة للمسألة توجيها موضوعيا، ومن أهمها ما يأتي:

- إيراد هذه القضية في مبحثٍ متعلق بموقف الاحتلال الفرنسي من الدرس التفسيري مقصود؛ ذلك أن هذه المسألة رغم كونها مسألة داخلية بين اتجاهات واجتهادات جزائرية؛ إلا أن الاحتلال متورط فيها، إما مباشرة؛ بالنّزغ والتسليط والتكليف، وإما بطريقة غير مباشرة؛ باعتباره سببا من أسباب فشو الجهل، وترسيخ معالم الجمود والتقليد.
- نسبة المعارضة إلى الزوايا والمتصوفة مقيد بقيود التبعيض والتقليل[5]، وهو الصواب؛ ذلك أن أعلام التوجه الصوفي في الجزائر قد شاركوا في الدرس التفسيري، وأسهموا في بقائه وتواصله، كما خصصت مؤسسات الزوايا -العلمية والطرقية- جزءا من درسها لتفسير القرآن، وهو ما سنجليه بالأمثلة في المبحث الثاني من هذا البحث، وبالتالي فإن التعميم والإجمال هنا مرفوضان.
- حمل موقف الرفض للمعارضين للتفسير على محامله الموضوعية الصحيحة، ذلك أنهم لم يرفضوا علم التفسير كلية، وإنما عارضوا اتجاهات الإصلاح والتجديد في اختياراته ومضامينه، وتقييدات الكلام فيما أورده الشيخ مبارك الميلي تؤكد ذلك (الاجتهاد، المألوف، مقام الأئمة).

(1) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 03، ص: 86.

(2) يُنظر: المصدر نفسه، ج: 03، ص: 414.

(3) المصدر نفسه، ج: 07، ص: 11.

(4) الميلي مبارك بن محمد، رسالة الشرك ومظاهره، ص: 70.

(5) يُنظر: سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 11.

3. المقاومة الوجودية للدرس التفسيري الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي

واجه الدرس التفسيري الجزائري تحديات حقيقية أمام سياسات فرنسا المتطرفة، وكادت إجراءات المنع والتضييق أن تأتي على إعدام أصل وجوده وبقائه، وهنا قاوم علماء الجزائر؛ ممن لم تنل منهم نوائب التنكيل والتهجير، وقاموا قومة علمية مشهودة، فاتجهوا يحيون درس التفسير؛ كل على حسب ما أتيح له من قدرات علمية، وما فسح له من مساحات ميدانية للتصدّر، فكانت بذلك المحافظة على وجود الدرس التفسيري واستمراريته في تلك الظروف؛ أظهر مظاهر المقاومة الثقافية والتحدي للاحتلال.

1.3. استمرارية الدّرس التفسيري الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي:

استمر الدرس التفسيري الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي، رغم ما كان يلازمه من أوصاف الازدهار والانحطاط، ونبغ في ميادينه وشارك كثير من العلماء والمدرسين، وتنوعت اعتبارات تصنيفه ووصفه، وتوزع مدرسوه على أركان القطر الجزائري وحواضره، مع ما ميزه من قيم التواصل والاتصال العلمي والحضاري خارج القطر الجزائري؛ تأثُّرا وتأثيرا، وإمدادا واستمدادا، وهنا سنحاول استذكار أهم جوانب هذه الاستمرارية؛ رغم شح المصادر، والطابع الإشاري للمتاح الموجود منها.

1.1.3. استغلال مؤسسات الدرس التفسيري العتيقة:

رابط علماء الجزائر في مؤسسات الدرس الإسلامي، وسعوا للمحافظة على الدرس التفسيري ضمن برامجها ومقرراتها، سواء في المؤسسات الأصلية؛ كالمساجد والزوايا، أو في المؤسسات المعاصرة؛ كالجمعيات والنوادي والمدارس، وتقديم المسجد في هذا المقام مقصود؛ "فالمسجد هو المدرسة الأولى للإشعاع العلمي، والمركز الأعظم للتوجيه الديني، وأقدم جامعة تأسست للتعبئة الثقافية والسياسية والعسكرية"[1]، ومن هؤلاء الذين اتخذوا **المسجد** ميدانا لدرسهم التفسيري أثناء الاحتلال الفرنسي:

- الشيخ علي بن محمد البوديلمي (ت: 1988م)؛ ختم تفسير القرآن الكريم في المسجد الأعظم بحاضرة الغرب؛ تلمسان، وهو الذي تصدى للتدريس أكثر من ربع قرن[2].
- الشيخ عبد الحميد ابن باديس (ت: 1940م)؛ ختم دروس التفسير في الجامع الأخضر بحاضرة الشرق؛ قسنطينة، وذلك سنة 1938م، وقد استغرق ربع قرن لختمه[3].
- الشيخ بلحاج بن عدون قشار الإباضي (ت: 1996م)؛ ختم تفسير القرآن في الدروس المسجدية بحاضرة ميزاب، وقد استغرق درسه التفسيري مدة طويلة؛ امتدت بين سنتي: 1956 و1996م[4].

---

(1) بلعالم محمد باي، الرحلة العلية إلى منطقة توات، ج: 01، ص: 330، وقال الشيخ محمد الأكحل شرفاء: "المسجد هو أول مؤسسة بناها رسول اللهﷺ أول مقامه بمدينة الهجرة"، توجهات من القرآن والسنة، ص: 21.

(2) يُنظر: سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 24.

(3) يُنظر: الإبراهيمي محمد البشير، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج: 01، ص: 318.

(4) يُنظر: د/عبد الوهاب بافلح، مجموعة من الباحثين، موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، ج: 01، ص: 183.

في هذه الأمثلة تتجلى عدة ملاحظات مهمة، نركز الإشارة إلى أهمها:

- استمرار مؤسسة المسجد في مهامها العلمية والثقافية، وبقائها المادي والمعنوي؛ رغم جنايات الاحتلال عليها، بالغلق والهدم، وبالتحويل والتعطيل، أو بالمنع والتضييق، وحضور الدرس التفسيري على كراسيه ومنابره، "وما بقي الإسلام محفوظا إلا بهذا النوع من التعليم الذي من أصوله تفسير القرآن والحديث النبوي"[1].
- طول المدد التي كان يستغرقها بعض أعلام الجزائر في ختم كلام الله تعالى درسا وتفسيرا، وهذا الملحظ له دلالات كثيرة، منها؛ طول النفس العلمي لدى علماء الجزائر، وقدرتهم على التحليل والاستنباط، زيادة على اعتبار الدرس التفسيري مجالا مهما من مجالات البناء الشرعي، وميدانا فسيحا من ميادين الإصلاح، "متخذين من تفسير القرآن غطاء دينيا لإبعاد أنظار السلطات الفرنسية عنهم"[2].
- ملازمة مظاهر الاحتفال والاجتماع عند ختم تفسير القرآن الكريم[3]، ولا يخفى ما في هذا الفعل من دلالات التحدي والمقاومة للاحتلال، والمجاهرة بمعاكسته، مع ما يتضمنه من رسائل لإدارته بحياة الأمة الجزائرية، وتمسكها بدينها، زيادة على الاعتبارات الداخلية للأمة الجزائرية؛ لما فيه من لفت لانتباه الخاصة والعامة للعودة إلى كتاب الله تعالى، وإشعارها بوجودها وبقائها.
- صبر الأمة الجزائرية على درس تفسير القرآن الكريم، وإقبالها على مجالسه وميادينه، واحتفالها عند ختمه؛ رغم الأوضاع القاسية التي فرضها الاحتلال عليها، وهذا دليل آخر على احتفاء الجزائريين بكتاب الله تعالى واحتفالهم به، واحترامهم الشديد لهذا العلم الشريف[4].

شاركت **الزوايا** -الطرقية منها والعلمية[5]- مشاركة مشهودة في الدرس التفسيري الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي، وأسهم فيه شيوخها، والفرنسيون أنفسهم كانوا يعتبرون الزوايا مؤسسات تعليم راقية، وذهب بعضهم إلى أن "الزوايا توازي المدارس الثانوية في فرنسا في وقته، وقال أنها تدرس القرآن والتفسير، والفقه والحديث"[6]، وبعضها كان الدرس التفسيري فيه من مستوى التعليم العالي، كما في

(1) الإبراهيمي محمد البشير، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج: 02، ص: 170.

(2) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 11.

(3) يُنظر: المصدر نفسه، ج: 07، ص: 24، والإبراهيمي محمد البشير، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج: 01، ص: 328- 359.

(4) يُنظر: الميلي مبارك بن محمد، آثار الشيخ مبارك الميلي، ج: 03، ص: 1019.

(5) يُنظر: بلعالم محمد باي، الرحلة العلية إلى منطقة توات، ج: 01، ص: 358، وسعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 03، ص: 169- 238، وقاضي سعيد، الجرجرية، ص: 55- 58.

(6) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 03، ص: 175.

زاوية الهامل ببوسعادة؛ حيث كانت "دروس الشيخ محمد القاسمي (الهاملي) والديسي من الدروس العالية"[1].

في حاضرة ازواوة فقط وجدت "على الأقل تسع عشرة زاوية متخصصة في الدراسات القرآنية، وهذه الدراسات تشمل تفسير القرآن"[2]، كما يمكننا التمثيل بالزاوية العلاوية بمستغانم؛ حيث برز الشيخ أحمد بن مصطفى بن عليوة (ت: 1934م)، الذي شارك في الدرس التفسيري الجزائري آنذاك، واتجه في تناوله للقرآن الكريم إلى أتباعه ومريديه[3]، أضف إليها -تمثيلا- الزاوية الحملاوية، والتي أدرجت المراجع التفسيرية في مقرراتها على الطلبة المقيمين[4].

2.1.3. استغلال مؤسسات الدرس التفسيري المعاصرة:

لم تتخلف **المدارس** الجزائرية الأهلية عن المشاركة في إحياء الدرس التفسيري، ولم يستثنها علماء الجزائر من هذا المشروع المبارك، وذلك لاعتبارهم بأن المدرسة الجزائرية المعاصرة "هي امتداد للمدرسة النبوية الأولى، وهي دار الأرقم بن الأرقم"[5]، وليقينهم الجازم بأن "حياة الأمم في هذا العصر بالمدارس"[6]، فلابد من إشراكها واستثمارها في أي مشروع علمي يراد له النجاح، وهو ما حدث مع سعيهم في إدراج مادة التفسير ضمن مقررات الطلاب، ومواد الدراسة الإجبارية[7].

اتجه المتصدرون للدرس التفسيري من علماء الجزائر إلى الاستفادة من الجمعيات والنوادي، حيث استثمروا في الموجود منها، كما عملوا على تأسيس أخرى، وإذا مثلنا بأشهرها في تلك الفترة؛ فإننا نجد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد أوردت قيود الدرس التفسيري وضوابطه في قانونها الأساسي، ونصت على كثير من جوانب نجاحه؛ كانتداب المدرسين المقتدرين، واختيار أفضل المقررات والمراجع من أمهات التفاسير، كما في المواد؛ 67 و74[8]، وهو دليل ظاهر على الاعتناء والاهتمام.

---

(1) المصدر نفسه، ج: 03، ص: 222.

(2) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 03، ص: 201، ومن تلك الزوايا الزواوية المعتنية بعلوم التفسير: نجد أم الزوايا العلمية؛ زاوية أبي داود بأقبو (بجاية)، والزاوية السحنونية بالأربعاء ناث ايراثن. يُنظر: المصدر نفسه، ج: 03، ص: 194 و197.

(3) يُنظر: أ.د/عام طوالبي، مجموعة من الباحثين، موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، ج: 01، ص: 88، وسعد الله أبو القاسم، المصدر نفسه، ج: 07، ص: 22.

(4) يُنظر: صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، ج: 02، ص: 366.

(5) بلعالم محمد باي، الرحلة العلية إلى منطقة توات، ج: 01، ص: 331.

(6) الإبراهيمي محمد البشير، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج: 03، ص: 258.

(7) يُنظر: المصدر نفسه، ج: 01، ص: 85، وقويع عبد القادر، الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1902 و1954، ص: 235، وسعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 03، ص: 238- 275.

(8) يُنظر: الإبراهيمي محمد البشير، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج: 01، ص: 85- 87، ويُنظر: ابن باديس عبد الحميد، الإمام عبد الحميد ابن باديس؛ حياته وآثاره، ج: 04، ص: 287 و288 و294 و302، والميلي مبارك بن محمد، آثار الشيخ مبارك الميلي، ج: 01، ص: 345.

إن اتجاه علماء الجزائر إلى استغلال الجمعيات والنوادي في تدريس التفسير؛ راجع إلى عدة اعتبارات، لعل أهمها اثنان؛ أولهما: إيجاد مساحات ومؤسسات تعوض تلك التي أوصدها الاحتلال أمامهم بقرارات المنع، ومنعها عنهم بقيود الترخيصات الإدراية المجحفة، أما الاعتبار الثاني؛ فيقصد إلى بلوغ فئات واسعة من الأمة الجزائرية، والتي ليست من رواد المؤسسات العتيقة؛ كالمساجد والزوايا.

2.3. حضور الدرس التفسيري الجزائري في ميادين الجهاد والاضطهاد أثناء الاحتلال الفرنسي:

أثبت الدرس التفسيري الجزائري حضوره في أقسى الميادين، وسجل استمراريته في أحلك الظروف والأوضاع، وهذا إن دل على شيء؛ فإنما يدل على إصرار علماء الجزائر على مقاومة ظروف الاحتلال، وقناعتهم بفاعلية الدرس التفسيري في تلك الأوضاع، واستثمارهم لمضامينه وهداياته في مقاومة المحتل وجهاده، وبذلك تتجلى ثنائية المقاومة؛ في ثباته وتثبيته، وفي هذا السياق الرئيس من هذه الورقة البحثية؛ يمكننا التمثيل بالأمثلة الآتية:

1.2.3. حضور الدرس التفسيري الجزائري في ميادين الجهاد والحرب أثناء الاحتلال الفرنسي:

سجل الدرس التفسيري الجزائري حضوره القوي والأولي في مجالات التعبئة الفكرية والشحن الإيماني للأمة الجزائرية، ولا يخفى ما في هذا الاتجاه من أدوار في حمل المجاهدين على الثبات عند ملاقاة الاحتلال الصليبي الغازي، وما تفيض به هدايات كلام الله تعالى من قيم إيمانية في النفوس؛ تحمل المؤمنين على التضحية وسلوك شُعب الشهادة في سبيل الله تعالى، ولم يكن هذا المسلك بدعًا جزائريا من الفعل والسلوك، بل هو دأب المسلمين من أيام الملاحم النبوية الأولى[1].

من أعلام الجزائر الذين سجل التاريخ استعانتهم بتفسير القرآن في ميادين الجهاد، واستحضارهم لدرسه في ساحات المعارك؛ الأمير عبد القادر الحسني الجزائري (ت: 1883م)، قال المؤرخ أبو القاسم سعد الله: "ولنبدأ بالأمير عبد القادر... كان يلقي دروس التفسير أثناء راحته وأمام جنوده، وكان يختار آيات الجهاد والصبر، ووصف المعارك، وحياة الرسول ﷺ، ويستخلص منها العبر والمواعظ، وكان بيانه وحماسه يساعدانه على بلوغ قلوب المستمعين"[2]، وفي هذا النص؛ نستخلص العبر والاستنتاجات الآتية:

- قناعة الأمير عبد القادر بفاعلية الدرس التفسيري في ظروف الحرب والجهاد، وقدرته على تحقيق التعبئة الإيمانية الضرورية في مثل تلك المواقف.
- منهج الانتقاء والاختيار؛ القائم على توظيف الآيات والهدايات المناسبة للأوضاع والظروف، وهو ما يبعد الدرس التفسيري عن الانفصال الواقعي، وعدم الجدوى.

(1) يُنظر: ابن كثير أبو الفداء إسماعيل، السيرة النبوية، ج: 02، ص: 360.

(2) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 09.

- اتجاه الأمير إلى استخلاص العبر والمواعظ، وعدم اكتفائه بالسرد العلمي والتاريخي للوقائع والأحداث، ولا يخفى ما في هذا المنهج من وصل للفوارق الزمانية، ورفع لأي وارد من موارد الحيرة والضياع الفكري عند المتلقي أوالمستمع.
- دور أساليب الدرس التفسيري في بلوغ قلوب المستمعين وعقولهم، والآثار المحمودة للتوظيفات البيانية والحماسية في تبليغ القيم القرآنية وتثبيتها.
- اعتماد الأمير عبد القادر على الدرس التفسيري الشفهي؛ لم يكن عجزا عن الكتابة والتدوين، بل كان اتجاها إلى أفضل الأساليب المحققة للمرغوب، والموصلة إلى الغايات والأهداف، وفي تلك المقامات والمواقف؛ كان التفسير الشفوي هو المناسب لمقام الجهاد والحرب، والأقدر على بلوغ عموم المجاهدين من الأميين ومحدودي التعليم، كما أن الخطاب الشفوي كان هو المطلوب لتحقيق الحماسة والتحريض على القتال.

2.2.3. حضور الدرس التفسيري الجزائري في السجون أثناء الاحتلال الفرنسي:

من ميادين المقاومة التي حقق الدرس التفسيري حضوره فيها؛ السجون والمعتقلات، فعلماء الجزائر لم يتوقفوا عن ممارسة التفسير وتدريسه في أشد الظروف وأقساها، وفي هذا الجانب يمكننا التمثيل بعدة مفسرين، منهم الأمير عبد القادر؛ الذي لم يثبت حضور درسه التفسيري في ميادين الحرب والجهاد فقط، بل "استمر على ذلك في سجن أمبواز بفرنسا"[1]، فلم تثنه ظروف السجن عن قطع دروسه العلمية، بل استغل ظروف السجن في تطعيم السجناء من المسلمين بمعاني كتاب الله تعالى، وتثبيتهم ومؤانستهم بأحكام الدرس التفسيري وحِكمه.

إن التمثيل بالدرس التفسيري للأمير عبد القادر حائز للتقديم من جهتين؛ من جانب التقدم الزمني، ومن جانب الاعتبار السّياقي، والذي يدعو للاستمرار التمثيلي به؛ مواصلةً لما سبق ذكره من درسه في ميادين الوغى، أما في أواخر الاحتلال الفرنسي للجزائر؛ فقد اتجهت جبهة التحرير الوطني أثناء الثورة التحريرية إلى فرض التعليم في كل المؤسسات والميادين المتاحة، وفي السجون؛ اتجهت التعليمات والأوامر إلى المسجونين من العلماء والمقتدرين على التعليم، وبذلك وُضعت البرامج والمقررات على المسجونين، وقُرّرت الامتحانات التقييمية، وهناك في سجون الاحتلال الفرنسي كان الدرس التفسيري حاضرا، وممن عدده ضمن مقررات المساجين؛ الشيخ أحمد حماني، كما مارسه منذ سنة 1957م إلى استقلال الجزائر[2].

من أظهر الأمثلة في هذا السياق المهم؛ تفسير الشيخ عمر راسم (ت: 1959م)، فقد "ألف الشيخ عمر راسم تفسيره في سجن بربروس؛ الذي دخله سنة 1915م، ولم يخرج منه إلا سنة 1921م... والفترة التي قضاها الشيخ عمر راسم كافية لكتابة هذا التفسير الذي لا يزال مجهولا، وقد نشرت جريدة الشهاب

(1) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 09.

(2) يُنظر: د/محفوظ بن صغير، العلامة أحمد حماني شيخ الإفتاء في الجزائر، ص: 73.

مقدمته سنة 1926م في العدد الخامس والسبعين"[1]، وتفسيره المدون لكتاب الله تعالى في سجن بربروس؛ تفسير كامل ضائع، لم يبق منه إلا مقدمته التي أبان فيها عن منهجه في تفسيره، وهو دليل آخر على حضور الدرس التفسيري في سجون الاحتلال الفرنسي بشقيه ونوعيه؛ الشفهي والمكتوب، كما يدل على التمكن العلمي لعلماء الجزائر آنذاك، وقدرتهم على الاستحضار المعرفي ولو مع غياب المصادر والمراجع.

3.2.3. مَوَاصِل الدرس التفسيري في الأمة الجزائرية أثناء الاحتلال الفرنسي:

من الصور المهمة لمقاومة الدرس التفسيري لسياسات الاحتلال الفرنسي؛ نجاحه في وصول أعلامه وأقطابه إلى فئات الأمة الجزائرية، وذلك باختلاف مستوياتها ومراكزها، وبتنوع مواصلها وإدراكاتها، وإذا كان مدرسوه قد قاموا مفسّرين لكتاب الله تعالى في السجون وميادين الجهاد؛ فإنهم في غيره من الميادين أحرى بالحضور والتدريس، وبذلك لم ينحصر الدرس التفسيري في المساجد والزوايا، ولم يقتصر على طلاب المدارس والمعاهد، بل "خرج التفسير من المسجد إلى تجمعات العامة والخاصة"[2]، وقد كان هذا الخروج ضروريا للوصول إلى أكثر فئات الأمة.

حرص أعلام الدرس التفسيري في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي على إدراك العامة بالدواء، وبلوغها بهدايات القرآن الكريم، باعتبار هذه الفئة هي أكثر الأمة الجزائرية، ولكون أكثر سياسات الاحتلال واقعةً عليه، ولهذا نجد بأن "جمهور هذا النوع من المفسرين كان من العامة في أغلب الأحيان؛ إنه جمهور التجار والفلاحين، وبعض المتعلمين والطلبة"[3]، وقد كان لهذا الاتجاه معالم مهمة، نستذكر الأساسية منها:

- اعتبار طبقة العامة والأميين هي أكثر الأمة الجزائرية، وذلك نتيجة حتمية لسياسات التجهيل الفرنسية[4]، وأي مشروع تحرري لا يمكنه النجاح إلا بإشراك هذه الفئة الغالبة من الجزائريين.
- اعتماد أكثر المفسرين الجزائريين على الأسلوب الشفوي[5]، وذلك لما فيه من خصائص الملاءمة والمناسبة لأكثر فئات الأمة؛ من الأميين والمتعلمين، وإعفاءً للكادحين من تكاليف المطبوعات.
- الحرص على إدراج الدرس التفسيري ضمن سياقات الإصلاح، واستثماره في معالجة الآفات والأمراض في الأمة، والبعد به عن مسالك الترف العلمي، والنأي به عن ممارسات الجمود[6].
- تنويع لغة الدرس التفسيري، وذلك ليشمل مكونات الأمة الجزائرية، فكان أكثره بالعربية الفصحى، وبغير الفصيحة[7]، كما وجد درس تفسيري باللسان البربري[8]، زيادة على الفرنسية[9].

(1) د/مختار قديري، مجموعة من الباحثين، موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، ج: 01، ص: 395.
(2) قويع عبد القادر، الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1920 و1954، ص: 182، من أمثلته؛ وصف الشيخ مبارك الميلي لدرس من دروسه التفسيرية، حيث كان المجلس تحت أشجار الزيتون، بجوار سوق من الأسواق العامرة، والذي قال في وصفه له: "... وكان موعد الدرس قبل الزوال بساعتين، فهيأوا لنا خارج السوق موضعا تحت ظلال الزيتون، واجتمع الناس إلى ذلك المكان... وكان الدرس؛ تفسير سورة الفاتحة، فكان فاتحة عهد جديد بتلك الجهات". الميلي مبارك بن محمد، آثار الشيخ مبارك الميلي، ج: 01، ص: 415.
(3) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 12.
(4) يُنظر: المصدر نفسه، ج: 03، ص: 279.
(5) يُنظر: المصدر نفسه، ج: 07، ص: 07 و09.
(6) يُنظر: المصدر نفسه، ج: 07، ص: 07 و12.
(7) يُنظر: المصدر نفسه، ج: 07، ص: 13، ود/بوسلاح فايزة، مجموعة من الباحثين، موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، ج: 03، ص: 1138.
(8) يُنظر: مجموعة من الباحثين، معجم أعلام الإباضية، ج: 02، ص: 400، ود/عبد الوهاب بافلح، مجموعة من الباحثين، موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، ج: 01، ص: 184.
(9) يُنظر: سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 29، وج: 07، ص: 32.

4. تنوع اتجاهات الدرس التفسيري الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي

من الجوانب الدقيقة لمقاومة الدرس التفسيري الجزائري للاحتلال الفرنسي؛ تحقيقه لقيم الشمولية والاتحاد في الممانعة والمواجهة، ذلك أن ميدان التفسير كانت تتقاسم درسه في القطر الجزائري عدة مدارس واتجاهات، والتي يمكن إجمالها في ثلاثةٍ أساسية، وهي؛ المدرسة الإباضية، والاتجاه الطرقي، والتوجه الإصلاحي، حيث تشاركت جميعها وأسهمت في إحياء الدرس التفسيري، وتعاونت لحفظه من الانقطاع والاندراس، فكانت هذه التشاركية العلمية والحضور المعرفي الشامل؛ مظهرا مهما من مظاهر المقاومة للاحتلال وسياساته، مع التنبيه إلى أن إيراد الأمثلة على هذه الاتجاهات ذاهب مذهب الغالب الأعم في الانتماء والتأثر، وإلا فإن المطابقة متعذرة في بعض الحالات، فقد يكون العَلَم طرقيا أو إباضيا؛ ولكنه سلك مسلك الإصلاح والتحرر في الدرس والاختيار التفسيري -وإن كان جزئيا أو نسبيا-.

1.4. من إسهامات الإباضية في الدرس التفسيري الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي:

شارك إباضية الجزائر بقوة في الدرس التفسيري أثناء الاحتلال الفرنسي، وتعتبر هذه الفترة عندهم عصر ازدهار وإنتاج تفسيري مرجعي، مازالت تلك المدونات التفسيرية أساسية في الدرس التفسيري الإباضي إلى اليوم، وذلك راجع لعدة اعتبارات وخصائص، نشير لأهمها وأحقّها بالذكر:

- الوزن المعرفي للمدونات التفسيرية الإباضية؛ وهذا الوزن عائد لجهتين اثنتين، أولهما؛ المنزلة العلمية للأعلام الذين تصدّوْا وتصدّروا لتفسير القرآن الكريم، أما ثاني الجهتين؛ فعائدة إلى المدونات التفسيرية التي أنتجوها، وحجم القبول والاعتبار الذي حازته عند الطائفة الإباضية؛ داخل الجزائر وخارجه.
- التدوين والطباعة لتفاسير إباضية مهمة[1]؛ فقد استطاع الإباضية طباعة أهم تفاسيرهم ونشرها، وهو ما حفظها من الضياع والاندثار، وسهل وصولها إلى قرائها ومريديها، مع استحضار الحكم العام آنذاك؛ في كون "التأليف في التفسير خلال العهد الفرنسي كان قليلا"[2]، وهي القلة التي فرضتها الأوضاع العامة للجزائر المحتلة.
- الاستعانة بوسائل التسجيل الصوتي للدرس التفسيري الشفهي[3]؛ حيث استعمل الإباضية اكتشافات واختراعات العصر آنذاك، فاستعان بعض أعلامهم بوسائل التسجيل الصوتي في دروسهم التفسيرية الشفوية، وهو ما ترك تسجيلات حفظت تراثا تفسيريا إباضيا، أمكن من خلالها الاطلاع على إنتاج تفسيري لم يدون.

---

(1) يُنظر: سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 15- 19، وحاج أحمد بن حمو كروم، مجموعة من الباحثين، موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، ج: 02، ص: 590- 598.

(2) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 09.

(3) يُنظر: د/عبد الوهاب بافلح، مجموعة من الباحثين، موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، ج: 01، ص: 184.

برز مجموعة من الأعلام الإباضيين المفسرين في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، وقد تنوعت إسهاماتهم بين الاعتناء والتأسيس المشهودين، وبين المشاركة والتدريس العام، وسيتركز سعينا على التمثيل بأقطاب التفسير الإباضي في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، مع التذكير بأن غرضنا هنا ليس الحكم على التفسير ومدوناته، وإنما هو إبراز جوانب الممانعة المعرفية والمقاومة الثقافية فيها؛

1.1.4. القطب محمد بن يوسف أطفيش (ت: 1914م):

أنتج القطب أطفيش ثلاث مدونات تفسيرية مهمة؛ وهي: هميان الزاد إلى دار المعاد، وتيسير التفسير، وداعي العمل إلى دار الأمل، وهي تفاسير لغوية عقدية، تصنف ضمن التفسير بالمأثور الإباضي[1]، وتفاسير القطب تبرز فيها معالم المقاومة الثقافية في عدة جوانب؛ منها:

- مواجهة الاحتلال الفرنسي وسياساته في ميزاب والجزائر؛ خاصة إذا استحضرنا بأن "زمن الإقدام على التفسير كان أثناء عهد تيرمان وما بعده، وفي ذلك تحد كبير للمخطط الاستعماري نحو الثقافة العربية- الإسلامية"[2].
- الإسهام في التاريخ الثقافي الجزائري؛ فتفسيره هميان الزاد إلى دار المعاد "نشره عشية ميلاد ابن باديس، وفي وقت كادت تتوقف فيه عجلة التاريخ الثقافي في الجزائر"[3]، حتى "ظل تفسير الشيخ أطفيش هو الوحيد في الميدان"[4] في تلك الفترة الخطيرة من عمر القطر الجزائري.
- مدى التأثير والإمداد العلمي الذي بلغته تفاسير القطب أطفيش، فلم تنحصر الاستفادة منها عند إباضية الجزائر فقط، بل وصلت إلى خارج القطر الجزائري، كما في هميان الزاد الذي طبع في زنجبار وسلطنة عمان[5].
- تعرضه لأصناف من التضييق والأذى من الاحتلال الفرنسي، فقد نفي من مستقرّه إلى قرية أخرى لسنوات، كما سُجن سنة 1882م[6].

2.1.4. الشيخ صالح بن عمرلعلي (ت: 1928م):

من تلاميذ القطب أطفيش، له مدونة تفسيرية بعنوان؛ القول الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، وقد سود هذا التفسير، "ولكن ظروفا حالت دون إتمامه، فتركه مسودة لم يتمكن من تبييضها بصفة

(1) يُنظر: حاج أحمد بن حمو كروم، مجموعة من الباحثين، موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، ج: 02، ص: 590- 598.
(2) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 19.
(3) المصدر نفسه، ج: 07، ص: 17.
(4) المصدر نفسه، ج: 07، ص: 19.
(5) يُنظر: حاج أحمد بن حمو كروم، مجموعة من الباحثين، موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، ج: 02، ص: 590.
(6) يُنظر: المصدر نفسه، ج: 02، ص: 584.

نهائية"[1]، وله كذلك؛ تفسير معاني أسماء سور القرآن، أورد فيه ما بين سورتي الفاتحة والنحل؛ ولم يكمله.

انتهج الشيخ صالح لعلي نهج المعارضة والمقاومة للاحتلال الفرنسي علميا وسياسيا، ولعل ذلك ما حمل بعض الباحثين على اتهام الاحتلال بتسميمه مع أحد أقرب تلاميذه إليه[2].

3.1.4. الشيخ بلحاج بن عدون قشار (ت: 1996م):

استمر الشيخ قشار أربعين سنة في تفسيره لكتاب الله تعالى، وهي الفترة التي استغرقت ما بين 1956م و1996م، فلم يكن تفسيره مجرد عرف علمي جارٍ، أو انخراطا في سياقات تعليمية متوارثة؛ بل "مثل تفسير الشيخ بلحاج لونا من ألوان التعامل مع كتاب الله، استجابة للأوضاع الراهنة في الجزائر في القرن العشرين، بعد محنة الاحتلال التي اجتاحت الجزائر، ونخرت مجتمعه من الداخل"[3]، وهو ما يدرجه مع الدرس التفسيري الجزائري المقاوم للاحتلال.

2.4. من مشاركات الطرقية في الدرس التفسيري الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي:

أثبت أعلام الاتجاه الطرقي الصوفي في الجزائر مشاركة مهمة في الدرس التفسيري، وهي المشاركات التي تنوعت بين الشفهية والتدوين، وتباينت بين القصد إلى التفسير العام للأمة، وبين التفاسير الخاصة بالأتباع والمريدين، ومن أهم من يقتضي المقام التمثيل بهم؛

1.2.4. الأمير عبد القادر الحسني الجزائري (ت: 1883م):

سبق ذكر جهود الأمير في الدرس التفسيري الشفوي في السجون، وفي ساحات الجهاد والملاحم، فإذا كان أكثر تفسير الأمير عبد القادر شفويا؛ إلا أن له مدونات تفسيرية مكتوبة، وأهمها كتاب؛ المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، وهو تفسير صوفي إشاري[4]، وله رسالة تفسيرية أخرى بعنوان؛ تفسير (إذا الشمس كورت)، "ولا ندري هل هو تفسير للسورة أو الآية"[5]، وبهذا يكون الأمير عبد القادر مشاركا في التفسير بفرعيه؛ الشفهي والمدون، زيادة على كونه أمير حرب وسياسة، ومؤسس الدولة الجزائرية المعاصرة.

2.2.4. الشيخ علي بن محمد البوديلمي (ت: 1988م):

الشيخ البوديلمي ممن ختم القرآن الكريم تفسيرا، وقد كان الختم في المسجد الأعظم بحاضرة تلمسان[6]، وقد استغرق درسه ربع قرن من الزمن، "وهو من الذين جمعوا بين العلم والتصوف... وكان

(1) المصدر نفسه، ج: 02، ص: 608.

(2) يُنظر: حاج أحمد بن حمو كروم، مجموعة من الباحثين، موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، ج: 02، ص: 603.

(3) د/عبد الوهاب بافلح، مجموعة من الباحثين، موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، ج: 01، ص: 205.

(4) يُنظر: د/زهرة بن يمينة، مجموعة من الباحثين، موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، ج: 01، ص: 25.

(5) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 15.

(6) يُنظر: المصدر نفسه، ج: 07، ص: 24.

هذا الشيخ رحماني الطريقة، ثم مال إلى العليوية (الشاذلية)"[1]، كما نهل العلم من حاضرة قسنطينة، ثم استزاد من الزيتونة والقرويين.

3.2.4. الشيخ أحمد بن عليوة المستغانمي (ت: 1934م):

شارك شيخ الطريقة العليوية بمستغانم في الدرس التفسيري الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي، ومما أنتجه في هذا الجانب؛ مجموعة من الرسائل التي ينسبها أتباعه ومريدوه إليه، وفي هذه الرسائل تفاسير لسور أو مجموعة من الآيات القرآنية[2]، أما أهم تركاته التفسيرية؛ فهو إملاؤه لكتاب: البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور، وقد "فسر فيه المؤلف سورة الفاتحة، ومائتين وست آيات من سورة البقرة؛ على التفسير الإشاري"[3]، وهي المدونات التي يحتفي بها مريدوا الطريقة العليوية في مستغانم وخارجها، حيث أخذت مكانها المرجعي بين تفاسير شيوخ الطريقة، كما اعتبر بعض الباحثين من أنصاره "الأستاذ بن عليوة مفسرا بأتم معنى الكلمة، حاول أكثر من ذلك أن يرسم معالم منهج تفسيري جديد؛ جامع بين الأسلوب الأثري والمقاربة الإشارية"[4].

4.2.4. الشيخ أحمد بن محمد مرازقة الأحبيباتني (ت: 1937م):

تعتبر المدرسة الكتانية من أشهر المدارس التي درس بها الشيخ الأحبيباتني التيجاني؛ إلى جانب المساجد والزوايا الأخرى في قسنطينة، حيث نجد من مقررات الدراسة فيها "التفسير وعلوم الحديث... فهو تعليم عال... وكان يتخرج منها الأئمة، والفقهاء، والقضاة"[5]، وهو من أعيان قسنطينة الذين درس عليهم كثير من رواد النهضة الجزائرية؛ كالشيخ علي البوديلمي، والشيخ عبد الحميد ابن باديس، والشيخ عبد السلام بن زراق (ت: 1945م)؛ وغيرهم كثير.

لم ينحصر الدرس التفسيري الطرقي في هؤلاء الأربعة؛ الذين ورد ذكرهم تمثيلا لا حصرا، بل وجد غيرهم ممن أنعش التفسير في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، وتصدروا لدرسه في المساجد والزوايا، ومن هؤلاء "شيوخ العلم والتصوف (الأحرار)، أمثال؛ بلقاسم الهاملي، وبلقاسم البوجليلي، ومصطفى بن عزوز البرجي (النفطي)"[6].

---

(1) المصدر نفسه، ج: 07، ص: 23.

(2) يُنظر: سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 22.

(3) أ.د/عصام طوالبي، مجموعة من الباحثين، موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، ج: 01، ص: 100.

(4) المصدر نفسه، ج: 01، ص: 108.

(5) د/شترة خير الدين، من أعلامنا المنسيين، ج: 02، ص: 110.

(6) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 10، ومنهم كذلك الشيخ محمد بن عزوز بن مختار القاسمي (ت: 1984م)، الذي درس في زاوية الهامل بين سنتي 1924 و1954م، حيث كان "يبدأ يومه العلمي بعد صلاة الصبح؛ فيشرع في تدريس علوم القرآن؛ من تفسير معانيه، وأسباب النزول..."، القاسمي أنس محمد الحسني وعبد المنعم القاسمي الحسني، إجازات العلامة الشيخ محمد بن عزوز القاسمي الحسني، ص: 11. ومنهم؛ الشيخ سعد بن عيسى حرزلي (ت: 2002م): درس ودرّس في زاوية الهامل، "وله تقييدات في الفقه والتفسير والحديث على معظم كتبه"، المصدر نفسه، ص: 39. ومنهم كذلك؛ الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي (ت: 1921م): من أعلام الدرس التفسيري الشفوي، وممن درّسوا وأُخِذ عنه "تفسير القرآن للطبري وتفسير الجلالين"، المصدر نفسه، ص: 42، ويُنظر: سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 10.

من المفسرين الجزائريين المغمورين؛ ممن تأثروا في تفسيرهم بظروف الاحتلال ومآسيه؛ الشيخ دحُ بن محمد بن دحُ بن زرفة المعسكري، له كتاب في التفسير أسماه: تفسير مقرِّب التفسير لما في مطولات المفسرين الكتاب المنير، وقد فرغ من نسخه سنة 1885م[1]، ووجه مناسبة هذا الجهد التفسيري لمقصد بحثنا؛ أن الشيخ دحُ كان من المناهضين للسياسات الفرنسية العنصرية؛ منذ بدايات الاحتلال، حيث استغل درسه في انتقاد ظلمه، وقد "أفصح عن بعضه ﷺ أثناء تفسيره كلما اعترضته سانحة، ومن ذلك قصد القايد الذي أخذ تلميذه منه أثناء حلقة الدرس، والتي كانت داعي مباشر من دواعي تفسيره القرآن العظيم"[2]، وهو ما يؤكد مرة أخرى حرص الاحتلال الفرنسي على التضييق على مدرّسي التفسير وطلابه.

3.4. من أدوار الإصلاحيين في الدرس التفسيري الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي:

تصدر علماء الاتجاه الإصلاحي للدرس التفسيري منذ بدايات الاحتلال الفرنسي، وهنا لابد من التنبيه على أصالة الفكر الإصلاحي وعراقته بين أعلام الفكر والعلم في الجزائر، فهو لم ينبعث ويبدأ مع رواد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وإنما كان سابقا لهم، مع ما كان يعتريه من سنن الازدهار والانحطاط، فكانت جمعية العلماء المسلمين هي الحلقة الذهبية في سلسلته الممتدة، ومن أعلام التفسير المخضرمين -الذين أدركوا العثمانيين والاحتلال الفرنسي-؛ العلامة محمد ابن العنابي الحنفي (ت: 1851م)، والعلامة القاضي أحمد بن سعيد العباسي القسنطيني (ت: 1835م)، "هؤلاء هم بعض المخضرمين من علماء الجزائر الذين درسوا التفسير ولم يؤلفوا فيه"[3]، أي درسوه تدريسا شفويا.

بحكم كثرة أعلام الاتجاه الإصلاحي وتعدد أقطابه في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي؛ فإننا سنكتفي في التمثيل بالإشارة إلى أولئك الذين أثّر درسهم التفسيري في الحركة العلمية الجزائرية، مع عدم إعادة ذكر من سبق التمثيل بدرسهم في المباحث السابقة؛ كعمر راسم.

1.3.4. الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة (ت: 1915م):

وصفه عمر راسم يومئذ "بأبي النهضة الجزائرية"[4]، كما كان من المدرسين المتمكنين في مساجد العاصمة الجزائرية، حيث كان التفسير من مقررات دروسه على العامة، أما في ميدان التحقيق والنشر؛ فقد حقق وصحح تفسير الجواهر الحسان؛ للإمام عبد الرحمن الثعالبي، وذلك "بعد مقابلته على سبع

(1) يُنظر: د/بوسلاح فايزة، مجموعة من الباحثين، موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، ج: 03، ص: 1138.

(2) المصدر نفسه، ج: 03، ص: 1139، وهنا لابد من التذكير بأن الشيخ ﷺ كان صوفي النزعة في كتاباته ومصادره في درسه التفسيري. يُنظر: المصدر نفسه، ج: 03، ص: 1151- 1153. قال المؤرخ أبو القاسم سعد الله: "ومن الذين تحدثت الوثائق عن اهتمامهم وقدرتهم على تعاطي التفسير الشفوي: حميدة العمالي؛ مفتي المذهب المالكي بالعاصمة خلال الستينات، وعبد القادر المجاوي، وحمدان الونيسي، ومحمد الصالح بن مهنة، وعبد الحليم بن سماية، وشعيب الجليلي..."، سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 10.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه، ج: 03، ص: 85- 86.

نسخ مخطوطة"[1]، والذي نشرته سنة 1904م مطبعة ومكتبة رودوسي[2]، ولا يخفى ما في هذا العمل من دلالات علمية وثقافية عميقة، وما يتضمنه من إشارات؛ منها استذكار وإحياء البعد الإسلامي للجزائر وعاصمتها؛ بإحياء تراث تفسيري لعَلَم من أعلامها في القرن 15م، زيادة على مصدرية تفسير الإمام الثعالبي في موارد الدرس التفسيري عند علماء الجزائر، ما يجعل تحقيقه ونشره إعانة علمية مهمة لأقطاب الدرس التفسيري.

2.3.4. الشيخ عبد الحميد ابن باديس (ت: 1940م)[3]:

يعد تفسير الإمام ابن باديس للقرآن الكريم؛ من أشهر التفاسير الإصلاحية في الجزائر خلال العصر الحديث، وهو تفسير مسجدي شفهي، استغرق فيه ربع قرن لختم دروسه، اتجه فيه اتجاه الإصلاح الديني والاجتماعي، مراعيا مدارك الطلاب المتحمّلين، ومناسبا لعمّار المسجد من التجار والفلاحين، وقد أكثر المؤرخون والدارسون من وصف درسه التفسير الشفوي، واعتكفوا على دراسة ما دوّن منها في فواتح مجلة الشهاب، والتي صارت مدونة تفسيرية صحفية بعنوان؛ مجالس التذكير من كلام اللطيف الخبير[4].

(1) نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، ص: 182.

(2) يُنظر: سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 03، ص: 86.

(3) يُنظر: الإبراهيمي محمد البشير، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج: 01، ص: 318-369، وج: 02، ص: 250-255، وسعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 19-22.

(4) لم تكن مدونة الإمام ابن باديس في مجال المقالة التفسيرية هي الوحيدة في مجالها وعصرها؛ بل شاركه آخرون في هذا الباب، وهو ما يبين أهميته وتأثيره آنذاك، ويقف دليلا ظاهرا على أهمية المقالة في تبليغ الكلمة، واستعانة علماء الجزائر بالمتاح والمستطاع من وسائل تبليغ الدرس الإسلامي للأمة الجزائرية، وممن يحسن ذكرهم في هذا المقام: **1/المفتي الحنفي محمد العاصمي (ت: 1951م)**؛ "فقد كان يلخص تفسيره لبعض الآيات في مجلة (صوت المسجد)... فوجدنا افتتاحياتها تحمل هذا العنوان الطويل: (عرض وتلخيص واستنتاج من تفسير الذكر الحكيم)". سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 26-27. **2/الشيخ عمر راسم**؛ في هذه الحالة التي سبق الإشارة إليها في الدرس التفسيري في السجون؛ نجد بأن المقالة الصحفية كانت هي الأثر الوحيد لتفسيره الذي ضاع كله، حيث لم يبق سوى مقال واحد عرض فيه مقدمة تفسيره، والتي نشرت في مجلة الشهاب سنة 1926م. يُنظر: د/مختار قديري، مجموعة من الباحثين، موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، ج: 01، ص: 388. **3/الشيخ العربي التبسي (ت: 1957م)**؛ شارك الشيخ العربي التبسي بالمقالة التفسيرية في عمله الإصلاحي، والتي كان يدون فيها -المقالة- مختارات من تفسيره الشفوي العام، فقد "كان الشيخ العربي التبسي يكتب أيضا في البصائر وغيرها". سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 13. **4/الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (1965م)**؛ شارك الشيخ البشير الإبراهيمي بأسلوبه البياني الراقي في المقالة التفسيرية، وهو "مثل عدد من زملائه؛ كان يتناول تفسير الآيات في الدروس الشفوية وفي المقالات المكتوبة"، المصدر نفسه، ج: 07، ص: 28. **5/الشيخ أحمد سحنون (2003م)**؛ يعتبر الشيخ أحمد سحنون من المخضرمين؛ الذي عاصروا الاحتلال وعهد الاستقلال، وكان من رواد الدرس الإسلامي في الجزائر، "وكان كذلك يجمع بين الدرس الشفوي في التفسير والمقال الصحفي الذي يستخرج منه معاني بعض الآيات... وكان ينشر إنتاجه على صفحات البصائر في باب دائم وخاص... وقد استمر الشيخ سحنون على طريقته المذكورة إلى ما بعد الاستقلال". المصدر نفسه، ج: 07، ص: 14.

3.3.4. الشيخ عبد الحليم بن سماية (ت: 1933م)[1]:

كان الشيخ عبد الحليم ابن سماية من أعلام الجزائر، حيث اشتهر مدرسا في المدرسة الثعالبية بحاضرة العاصمة الجزائرية؛ فقد درست عليه جموع غفيرة من الطلاب، وكانت له دروس عالية متخصصة، "أما الدرس العام؛ فهو في التفسير وشرح الأحاديث"[2]، وهو من أولئك المصلحين الذين نالهم اضطهاد وبطش الاحتلال الفرنسي، حتى أصابه الجنون في آخر حياته[3].

4.3.4. الشيخ العربي التبسي (ت: 1957م):

الشيخ التبسي من أقطاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومن رواد درسها التفسيري الإصلاحي، فهو "لم ينفك عن إلقاء دروس التفسير، ومواصلة ما بدأه إلى أن ختمه في آخر سنة 1956، وكان ذلك قبل استشهاده ببضعة أشهر فقط، وقيل إن تدريسه للتفسير دام اثنين وعشرين سنة"[4]، وهو ما يدل على طول نفسه في درسه التفسيري، وزاده العلمي المؤهِّل له، زيادة على كونه "لم يستمر في مكان واحد، فقد تنقل من تبسة إلى غيرها من مدن الغرب، ثم قسنطينة، ثم العاصمة"[5]، ولا يخفى ما في هذه الرحلة التفسيرية من آثار علمية حضارية، ولعله ما جعل الاحتلال الفرنسي يختطفه من بيته في شهر رمضان سنة 1957م، ليعدمه بعد تعذيبه، "وهو من الجزائريين الذين لا تعرف قبورهم"[6]، ولكن حُمِدت آثارهم.

5.3.4. الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (ت: 1965م):

لم تنحصر مشاركة الشيخ البشير الإبراهيمي في المقالة التفسيرية فقط، بل امتد جهده إلى الدرس التفسيري الشفهي، والمستحضِر للمدارك العلمية التي بلغها الإبراهيمي بين أقرانه؛ يتيقن بأنه في هذا المجال كان "أقدرهم على تشقيق المعاني وتوليد الأفكار، والتطبيق على الحاضر، بطريقة لا تختلف كثيرا عن منهج ابن باديس ورشيد رضا"[7]، وقد أبان عن اهتمامه الخاص بالدرس التفسيري في الجزائر، وحواضر العالم الإسلامي، مع حكمه النقدي على بعضها؛ ثناءً أو ذمًّا[8].

---

(1) يُنظر: نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، ص: 236، وبسكر محمد، أعلام الفكر الجزائري من خلال آثارهم المخطوطة والمطبوعة، ج: 01، ص: 317.

(2) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 03، ص: 96.

(3) يُنظر: مجموعة من الأساتذة، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، ج: 01، ص: 404، والمدني أحمد توفيق، حياة كفاح، ج: 02، ص: 87.

(4) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 13.

(5) المصدر نفسه، زد على ما سبق -في وصف درسه التفسيري-؛ أنه "كانت ثقافته الدينية الواسعة تؤهله لهذه المهمة، فقد كان مطلعا على التفاسير، وعارفا بأحوال العصر، ومقتنعا بدور العالم في هذا المجال، فكان يتخذ من التفسير وسيلة للدعوة إلى التقدم والنهوض... وكان يعتمد منهجا معينا؛ يقوم على شرح الألفاظ، واستخراج المعاني وتطبيقها على الواقع...". المصدر نفسه.

(6) مجموعة من الأساتذة، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، ج: 01، ص: 525.

(7) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 28.

(8) مثل موقفه من بعض دروس التفسير المقررة على الطلاب في جامع الزيتونة، يُنظر: الإبراهيمي محمد البشير، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج: 01، ص: 362.

5. خاتمة

من خلال ما تم عرضه في هذا البحث المختصر؛ يمكننا تلخيص الإجابة عن الإشكالية العلمية المطروحة في المقدمة، وعرض أهم المواصل المعرفية المتعلقة بمظاهر وقيم المقاومة في الدرس التفسيري الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي، والتي ستتركّز في النقاط الآتية:

- تطرف موقف الاحتلال الفرنسي من الدرس التفسيري الجزائري، وسعيه لتعطيله إما بالمنع والحظر، أو التضييق على مدرسيه، والتشديد على أعلامه، مع الإضرار بمؤسسات الدرس الإسلامي، وتعطيل مواردها وأوقافها.
- فرض الاحتلال الفرنسي للرخص الإدارية المجحفة على المدرسين الجزائريين، واستعانته بأدوات التفتيش والتشويش، حيث جند المستشرقين والمفتشين الإداريين لمراقبة مضامين الدرس التفسيري، كما استثمر في نزعات الجمود الداخلية المعارضة للتفسير الموقظ.
- المقاومة الوجودية للدرس التفسير الجزائري؛ حيث كافح علماء الجزائر لبقاء الدرس التفسيري واستمراريته العلمية في المتاح والمقدور من المؤسسات العتيقة؛ كالمساجد والزوايا، كما انتقلوا به إلى المؤسسات المعاصرة؛ كالمدارس، والجمعيات والنوادي.
- المقاومة الميدانية للدرس التفسيري الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي؛ حتى سجل التاريخ حضوره في أقسى الميادين والحالات، حين وقف المفسرون الجزائريون مدرسين في ميادين الجهاد والحرب، وجلسوا لدرسه في ساحات السجون والمعتقلات.
- المقاومة المعرفية للدرس التفسيري الجزائري؛ والتي تجلت في مجاوزته للحدود الموضوعية التي فرضها الاحتلال، واستغلال مضامين الدرس التفسيري في بناء الشخصية الوطنية الجزائرية وترميمها، وتدبر ءاياته الداعية إلى مناهضة الظلم والظالمين، مع استثمار موضوعاته الإصلاحية في تحقيق نهضة شمولية في الأمة.
- تميز الدرس التفسيري الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي بمميزات التنوع؛ وهو الذي تجلى في عدة جوانب واعتبارات، منها؛ التنوع المؤسساتي والميداني (المؤسسات العتيقة/المعاصرة)، واختلاف المتلقّين للدرس التفسيري وتنوعهم (العامة؛ من التجار والفلاحين/الخاصة؛ من الطلبة والمريدين)، زيادة على تباين أساليبه وطرقه (الشفهي/المدون)، والتعددية اللغوية الفريدة (العربية الفصيحة/العربية المتفاصحة/البربرية/الفرنسية).

- اعتماد أكثر المفسرين الجزائريين على المقاومة بالتفسير الشفوي، وغلبة الإنتاج فيه على قسيمه المدون، وهنا تستوقفنا حقيقة، وهي "أن هذا الجيل من المفسرين الشفويين قد أدى دوره وبلغ رسالته عن طريق الكلمة الناطقة، وكون شبابا، وبعث شعبا كاملا بوسائله البيانية غير القلم"[1].
- المقاومة الشمولية للدرس التفسيري الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي؛ وهي من أهم قيم المقاومة الثقافية في هذا الباب؛ والتي تجلت في الحضور التشاركي لجميع الاتجاهات المكونة للمشهد العلمي الإسلامي في الجزائر، فكانت المشاركة إباضية، وطرقية، وإصلاحية؛ ومن كل مدرسة برز أعلامٌ مفسرون، وصُنّفت كتب ومدونات، وبقيت آثار تفسيرية.
- الجهود المعتبرة لعلماء الجزائر؛ في توظيف الدرس التفسيري كوسيلة من وسائل المقاومة الثقافية والعلمية للاحتلال الفرنسي، مع النظر إلى وصف الاعتبار في هذا السياق من جهتي الكم والنوع، زيادة على استحضار ما واجههم به الاحتلال من ممارسات الإرهاب والاضطهاد.

بناء على هذه النتائج المعرفية المهمة، وعطفا على ما سبق الإشارة إليه من قضايا؛ يمكننا المشاركة بالتوصيات الآتية:

- مواصلة البحث والتنقيب الفاحص في التراث التفسيري الجزائري، ومواصلة العمل البحثي في استخراج مكنوناته، ودراسة مناهج أعلامه ومدوناتهم.
- عقد ملتقيات ومؤتمرات علمية في هذا الموضوع الواسع، مع الحرص على جدية أطروحاتها وإشكالياتها، والعمق في مضامينها ومحاورها.
- الاستفادة من قيم ومعالم الدرس التفسيري الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي، واستثمار النافع منها في توجيه درسنا التفسيري المعاصر، وإحياء مراجعه ومناهجه في مؤسسات الدرس الإسلامي في جزائرنا المستقلة.
- تقرير مقاييس علمية في الدرس التفسيري الجزائري؛ تتيح لطلبة الكليات والجامعات الإسلامية الاستفادة من تلك التجارب الناجحة، مع شمولها لمعاهد ومدارس تكوين موظفي المساجد بمختلف رتبهم، وهو ما يندرج ضمن بناء محكم لمرجعية دينية أصيلة ومثمرة؛ تشمل المناهج والمصادر.
- توجيه طلاب الدراسات العليا في الحواضر الجزائرية إلى التنقيب في هذا المحور المهم، مع اقتراح مواضيع وإشكاليات في هذا الميدان؛ الذي تنقصه اليد الدارسة المحققة، مع تسجيل توجه مبارك للجامعات الجزائرية في هذا الباب، وهو المسار الذي يجب تشجيعه بالجوائز الوطنية والدولية المعتبرة في علم التفسير.

(1) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 07، ص: 13.

- ربط الخلف من النشء والطلاب الجزائريين بسلفهم من العلماء والمدرسين العاملين، من الذين رابطوا "يقاومون سرا وعلانية... ليس بالقلم والقرطاس فقط، ولكن بالمثل الأعلى والكلمات المعبرة، والتوجيه القويم، والنصائح الخالصة"[1]، وإعادة الاعتبار التاريخي للمقاومة العلمية.

6. قائمة المراجع

- الإبراهيمي محمد البشير، 1997م، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، رويبة- الجزائر، دار الوعي، ط/01.
- ابن باديس عبد الحميد، 2014م، الإمام عبد الحميد ابن باديس؛ حياته وآثاره، المحمدية- الجزائر، عالم المعرفة، ط/01.
- بسكر محمد، 2015م، أعلام الفكر الجزائري من خلال آثارهم المخطوطة والمطبوعة، بوسعادة- الجزائر، دار كردادة، ط/02.
- بلعالم محمد باي، 2015م، الرحلة العلية إلى منطقة توات، الحراش- الجزائر، المعرفة الدولية، د/ط.
- د/شترة خير الدين، 2015م، من أعلامنا المنسيين، سطيف- الجزائر، دار الصديق، ط/خاصة.
- د/محفوظ بن صغير، 1436هـ- 2015م، العلامة أحمد حماني شيخ الإفتاء في الجزائر، رويبة- الجزائر، دار الوعي، د/ط.
- سعد الله أبو القاسم، 2011م، الحركة الوطنية الجزائرية، المحمدية- الجزائر، عالم المعرفة، د/ط.
- سعد الله أبو القاسم، 2016م، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المحمدية- الجزائر، عالم المعرفة، د/ط.
- سعد الله أبو القاسم، 2017م، تاريخ الجزائر الثقافي، المحمدية- الجزائر، عالم المعرفة، د/ط.
- سعيدوني ناصر الدين، 2014م، الوقف في الجزائر أثناء العهد العثماني من القرن 17 وحتى القرن 19، باب الزوار- الجزائر، البصائر، د/ط.
- شرفاء محمد الأكحل، 2014م، توجيهات من القرآن والسنة، عين مليلة- الجزائر، دار الشيماء، ط/01.
- صلاح مؤيد العقبي، 2002م، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، بيروت- لبنان، دار البراق، د/ط.
- القاسمي أنس محمد الحسني وعبد المنعم القاسمي الحسني، 1433هـ- 2012م، إجازات العلامة الشيخ محمد بن عزوز القاسمي الحسني، المسيلة- الجزائر، دار التوفيقية، ط/01.
- قاضي سعيد أبو خليل، 2011م، الجرجرية، المحمدية- الجزائر، عالم المعرفة، ط/01.
- قوبع عبد القادر، 1434هـ- 2013م، الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1902 و1954، المحمدية- الجزائر، دار طليطلة، د/ط.

(1) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 03، ص: 20.

- ابن كثير أبو الفداء إسماعيل، 1428هـ- 2007م، السيرة النبوية، القاهرة- مصر، شركة القدس، ط/02.
- لورا فيشيا فاقلييري، 2013م، أرشيف الفاتيكان السري حول غزو الجزائر من قبل القوات الفرنسية لشارل العاشر أو الحرب الصليبية المجهولة، المحمدية- الجزائر، عالم الأفكار، د/ط.
- مجموعة من الأساتذة، 2016م، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، بئر التوتة- الجزائر، منشورات الحضارة، د/ط.
- مجموعة من الباحثين، 1442هـ- 2020م، موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، الأغواط- الجزائر، مطبعة مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، ط/01.
- مجموعة من المؤلفين، 1421هـ- 2000م، معجم أعلام الإباضية، بيروت- لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط/02.
- المدني أحمد توفيق، 2009م، مذكرات حياة كفاح، حسين داي- الجزائر، دار البصائر، د/ط.
- المهدي البوعبدلي، 2013م، الحياة الثقافية بالجزائر، الحراش- الجزائر، دار المعرفة الدولية، ط/خاصة.
- الميلي مبارك بن محمد، 1436هـ- 2015م، آثار الشيخ مبارك الميلي، الجزائر، دار الرشيد، ط/01.
- الميلي مبارك بن محمد، 1441هـ- 2019م، رسالة الشرك ومظاهره، المحمدية- الجزائر، دار الميراث النبوي، ط/01.
- نويهض عادل، 1438هـ- 2017م، معجم أعلام الجزائر، رويبة- الجزائر، دار الوعي، د/ط.

7. Bibliography List

- A Group of Researchers (1421 AH/2000 CE), Dictionary of Ibadi Notables, 2nd edition, Beirut, Lebanon: Dar al-Gharb al-Islami.
- A Group of Researchers (1442 AH/2020 CE), Encyclopaedia of Notable Qur'anic Exegetes in Algeria, 1st edition, Laghouat: Centre for Research in Islamic Sciences and Civilisation.
- A Group of Researchers (2016), Encyclopaedia of Algerian Scholars and Writers, n.ed, Bir Touta, Algeria: Dar al-Hadara.
- Al-Bouabdelli, al-Mahdi (2013), Cultural Life in Algeria, Special Edition, El Harrach, Algiers: Dar al-Ma'rifah Al-Dawliyya.
- Al-Ibrahimi, Muhammad al-Bashir (1997), The Works of Imam Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi, Rouiba, Dar al-Wai.
- Al-Madani, Ahmad Tawfiq (2009), Memoirs of a Life of Struggle, n.ed, Algiers: Dar al-Basa'ir.
- Al-Mili, Mubarak ibn Muhammad (1436AH-2015CE), The Works of Shaykh Mubarak al-Mili, 1st edition, Algeria: Dar al-Rashid.

- Al-Mili, Mubarak ibn Muhammad (1441 AH/2019 CE), A Treatise on Shirk and Its Manifestations, 1st edition, El Mohammedia, Algeria: Dar al-Mirath al-Nabawi.
- Al-Qasimi, Anas Muhammad al-Hassani and ‘Abd al-Mun’im al-Qasimi al-Hassani (1433 AH – 2012 AD), The Ijazas of the Scholar Sheikh Muhammad ibn ‘Azuz al-Qasimi al-Hassanin, 1st editionو M’sila: Dar al-Tawfiqiyah.
- al-Uqbi, Salah Mu'ayyad (2002), The Sufi Orders and Zawiyas in Algeria, n.ed, Beirut, Lebanon: Dar al-Buraq.
- Baskar, Muhammad (2015), Notable Figures of Algerian Thought through Their Manuscript and Printed Works, 2nd edition, Bou Saada: Dar al-Kardada.
- Belalam, Muhammad Bay (2015), The Elevated Journey to the Tuat Region, 2nd edition, El Harrach: Dar al-Ma'rifah al-Dawliyyah.
- Dr Mahfouz bin Saghir, 1436 AH–2015 AD, The Scholar Ahmad Hamani, Grand Mufti of Algeria, n.ed, Rouiba, Algeria: Dar al-Wae.
- Goubaa, Abdelkader (2013), The Reform Movement in the Ziban and M'zab Regions between 1902 and 1954, n.ed, El Mohamadia, Algeria: Dar Tolaitila.
- Ibn Badis Abd al-Hamid (2014), Imam Abd al-Hamid Ibn Badis: His Life and Works, 1st edition, Al-Mohammedia, Algeria, Alam al-Ma'rifa.
- Ibn Kathir, Abu al-Fida Isma'il (1428 AH/2007 CE), The Prophetic Biography, n.ed, Cairo: Sharikat al-Quds.
- Noueihd, Adel (2017), Dictionary of Notable Figures of Algeria, n.ed, Rouiba: Dar al-Wa'i.
- Qadi, Sa'id Abu Khalil (2011), Al-Jarjariyyah, 1st edition, Dar al-Ma'rifa, El Mohammedia, Algeria: Dar Zamoura.
- Sa'dallah, Abu al-Qasim (2011), The Algerian National Movement, n.ed El Mohamadia: Alam al-Ma'rifah.
- Sa'dallah, Abu al-Qasim (2016), Research and Opinions on the History of Algeria, n.ed, El Mohamadia, Algeria: Alam al-Ma'rifah.
- Sa'dallah, Abu al-Qasim (2017), The Cultural History of Algeria, n.ed, El Mohamadia: Alam al-Ma'rifah.
- Saidouni, Nasser al-Din (2014), The Waqf in Algeria during the Ottoman Period (17th–19th Centuries), n.ed, Bab al-Zouar: Dar al-Basa'ir.
- Sharafa, Muhammad al-Akhel (2014), Guidance from the Qur'an and Sunnah, 1st edition, Ain M'lila, Algeria: Dar al-Shayma.
- Shatra, Khair al-Din (2015), Among Our Forgotten Notable Figures, Special edition, Setif, Algeria: Dar al-Siddiq Publishing and Distribution.
- Veccia Vaglieri, Laura (2013), The Secret Vatican Archives on the Invasion of Algeria by the French Forces of Charles X, or the Unknown Crusade, translated by Hamid Abdelkader, n.ed, El Mohammedia, Algeria: Alam al-Afkar.